

الاتجاهات العامة لإشكالية التأويل و نقد النص بين

باروخ سبينوزا و محمد أركون

د. خنوس نور الدين

المركز الجامعي الببيض

الملخص

نحاول أن نبين العلاقة بين الفكر الغربي و بعض الآراء في الفكر الإسلامي خاصة في مجال التأويل و قضايا نقد النص المقدس و إشكالات المعنى خاصة بين أركون و سبينوزا
الكلمات المفتاحية : التأويل; النص الديني ; التاريخية

Résumé

Nous essayons de montrer la relation entre la pensée occidentale et certaines opinions dans la pensée islamique, en particulier dans le domaine de l'interprétation et Herommtiqua Et les questions de texte sacre et aussi les problèmes du significations qui se posent sur tous entre Arkoun et Spinoza

Mots-clés: interprétation;text ; religieux ;,historique

مقدمة

نريد أن نتعرف على العلاقة الجدلية التي نشأت في الفكر الغربي الأوربي ابتداء بين العقل و النص، من لحظة إحساسه بضرورة تغيير الوجه الشاحب للفكر و العقل الأوربي طيلة عشرة قرون . من لحظة الإصلاح حتى مرحلة النضج نضج هذا العقل ،قصد فهم أي علاقة كان يؤسسها العقل الأوربي الغربي مع النصوص الدينية المقدسة ؟ كيف كان يتعامل هذا العقل مع ما كان عنده يسمى وحيا؟ . أو تنزيلا إلهيا؟ . والغرض من ذلك فهم مدى التأثير الذي انتقل من ثقافة الآخر ممثلا في الغرب. إلى ثقافة الشرق ،العرب و المسلمين ؟ لفهم أي خيوط متشابكة نسجت في غفلة من المسلمين ،و بعلم بعضهم ، لفهم كيف ساهمت في صنع جزء من أفكارنا؟ أو حتى ثقافتنا أو مصادر ثقافتنا،كيف انتقلت لنا هذه التناقضات و العداوات الفكرية و الخصومات الفلسفية؟ وهي في الأصل ليست وليدة ثقافتنا ، و كيف ساهمت في خلق حتى بعض الإشكاليات لنا ؟. تلك الإشكالات التي لم تفرزها تناقضت ثقافتنا، بل أوهام صنعتها و خلقتها ثقافة أخرى مارست الوصاية علينا؟ و صنعت لنا إشكالات كما قلنا أشغلنا سنين من الزمن لم نكن في حاجة للإجابة عليها .

تاريخ العقل في تأويل الكتاب المقدس استمرارية الجوهر و حلولية الرمز

إن الاهتمام بالعقل لم يكن وليد النهضة ، و إن استعمال هذا العقل وتغليب في قضايا التأويل وفهم النص لم يكن وليد الإصلاح في الفكر الغربي ، غير أن تأسيس الرؤى والنظريات و الإشكاليات و المبادئ على العقل لفهم النصوص المقدسة هو الجديد المستجد في الفكر الغربي الأوربي، تأسيس و تأصيل النظريات و المبادئ على العقل في مقابل ما كان سائدا من النص و حرفيته وحتى تفسيراته الجديدة . تفسيرات الكنيسة الجاهزة للنص . كانت طيلة عشرة قرون هي من تجيب على تساؤلات الأفراد و تساؤلات العقل التي كان يطرحها ، سواء من خلال تأويلات الرهبان و القساوسة للنصوص، أو من خلال إجابات غير علمية ، و لا

دقيقة حول العالم والإنسان والكون الطبيعية. (1)، تتمسح كلها بمسوح القداسة والرهبة. ليس غريبا أن تبقى هذه الروح نفسها باستمرار مستمرة الواقع المعاش. و متناغمة مع أخرافه، ليس غريبا أن تبقى هذه الروح وهي تملك تأويل الكتاب المقدس وفهم أسرارها، لأن لها الأحقية هي وحدها في فعل ذلك وليس أيا كان، ليس أي عقل، بل عقل الكنيسة وجوهرها. إنها سيطرة الروح المتعالية والمتعالمة، خلقت لنفسها حالة من التبجيل والاحترام لسببين: أولهما: تدعى أنها تمثل الإرادة الإلهية وبالتالي تملك الأسرار الخفية التي يتشكل منها النص المفترض أنه إلهي. ثانيها: الجهل الذي كان يستبد بعقول العامة من الناس، التي تريد الجاهز من الأفكار والجاهز من النظريات، تتلقفه من أجل التنفيذ والتجسيد لا غير، وبالتراكم غير المؤسس والجهل المؤسس كما يصفه أركون، تترسخ الأفكار لتصبح عقائد. وتتكلس الرؤى لتصبح نظريات. وبالتراكم هذه الكنيسة أمسكت باب الغفران من الذنوب ونصبت نفسها عن الله تغفر، و تعفو، فأخرجت صكوك الغفران يشتريها الأغنياء ليدخلوا الجنة. جنة الخلد التي تؤمن بها العقيدة المسيحية أو جنة الكنيسة التي تطالهم بالرضى والعفو، وبالتراكم وطول الأمد تفتت الرذائل في الكنيسة، وتحولت الأديرة إلى عالم من الفضائح، وبدل الرهبانية التي ابتدعها أرباب الكنيسة، حل محلها انحلال خلقي رهيب في تاريخ الكنيسة والأديرة. وبدأت ثقة الناس تتزعزع في أرباب الكنيسة ورجالاتها، وافتضح أمر الذين يحيون حياة الرذيلة ويحتكرون متع الحياة الدنيا، في حين يدعون الناس إلى النقص، افتضح أمر رجالها الذين يتأولون الكتاب بأهوائهم، ويقدمون أوامره التي تصدر من رغباتهم، في حين يجمدون كل عقل وكل ما من شأنه أن يتامل من ادعاءاتهم بدعوى المروق والجهل.

التأويل _ من الله إلى الإنسان _

لقد بدأت مرحلة جديدة، مرحلة التحول من الدين إلى العلم، ومن الله إلى الإنسان، ومن الماضي إلى الحاضر والمستقبل. إنها لحظة الاستبدال والتغير، استبدال المعتقدات والملل والنحل والآراء والأهواء، لقد دعوا إلى احترام العقل ومكانته في البحث الجاد وزعزعة السلطة العقائدية التي كانت تمارسها الكنيسة دون الخروج عن الإطار الانطولوجي العام، كما تم رفض فكرة التوسط بين الله والإنسان، وجعل علاقة الله بالإنسان مباشرة، مع رفض تفسير الكتاب المقدس وإعلان حرية الإيمان. (2) لقد بدأت مرحلة الإصلاح الديني الذي يتبنى التغير وعلى الرغم من اختلاف المصلحين فقد كان الإصلاح يتبنى أفكارا واحدة، وهي تصحيح رؤى الكنيسة دون رفض لها أو كفر بها، إنها مرحلة ترتيب بيت الكنيسة من الداخل. كانت المحاولة مع ديسيريوس، إراسموس (1466 - 1536) كأول من درس الكتاب المقدس في ضوء ما يسمى بالنقد السفلي، أو النصي، الذي يحاول تحديد ما قاله النص الأصلي قبل تغييره بالخطأ، ثم مقارنة النص مع كتابات مؤلفين آخرين. وهي أولى محاولات التعرف على النص المقدس - بالعقل الفاقد للنقطة من طرف قطاع واسع من الناس. وبالأخص أرباب الكنيسة. كانت بداية الاهتمام بالعقل مبكرة جدا مع مارتين لوتر (1483 / 1546) وجون كالفن حيث هدفت هذه الحركة إلى التجديد في الفكر المسيحي الديني وهي محاولة تظهر مع كل عصر، وفي كل فكر، وكأن هذه الأفكار تبلى كمل يبلى الثوب فتحتاج إلى من يجددها. لقد سعت هذه الحركة إلى التخلص من سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، مع محاولة

العودة إلى جوهر المسيحية و قيمها الأصيلة ، بعيدا عن تأويلات الرهبان ، و انحرافات القساوسة ، حيث كان ينظر لها على أنها تعاليم جامدة ابتدعها رجال الدين . لقد كان من أولوياتها أن لا تكون وساطة كهنوتية في فهم الكتاب المقدس ، بل ترك الحرية للإنسان ، في بيانه و التعامل معه ، و محاولة تأويله بالعقل ، و في ذلك إجلال لقدرة العقل، و إحلال للضمير ألحى في تبنى تعاليم الرسالة المقدسة ، لقد قام لوثر بأول ترجمة للكتاب المقدس باللغة الألمانية، ما سمح بفهم الكتاب المقدس، و سمح بالتفسيرات المتعددة و الكثيرة لتعاليم الرسالة المسيحية .(3) و لقد احرق لوثر في 1510 م قرار طرده من الكنيسة الكاثوليكية مؤيدا بذلك أول مذهب و للبروتستنتية "لقد ترسخت الفردية في زمن الإصلاح الديني مع أفكار مارتن لوثر وكالفن إذ تم التأكيد علي تطهر الأفراد ونجاتهم، فللفرد علاقة شخصية مع الله و يتضمن هذا رفض وصاية الكنيسة و الإعلاء من قيمة الفرد ، و مسؤوليته عن نفسه أمام الله "(4) يمكن أن نشير إلى محورين قد سيطرا على هذه الفترة اللوثرية . أولا : تمجيد العقل الإنساني باعتباره مناط التمييز بين الطبيعة الإنسانية و ماسواها من الموجودات ، حيث يدل العقل في صراع الإصلاحيين الأوائل أمثال لوثر و كالفن دلالة واضحة ، أن الاعتماد على العقل كوسيلة تحررية ليس من قيد الكنسية و أوهامها فحسب ، بل حتى من الخرافات التي طبع عليها هذا الفكر ، الخرافات و العوائد البالية التي ظلت تكبل العقل و تقيده ، ان هذه التجربة الإصلاحية يمكن تكرارها في كل عهد خاصة حينما تسيطر النصوص و التفسيرات الكهنوتية . ثانيا أن الإنسان محور الوجود الإنساني و ليس النص "لأن ما أنجزته الحداثة الغربية هو كونها أخلت سيادة الإنسان و سيطرته على الطبيعة محل الذات الإلهية و هيمنتها على العالم . و ذلك عكس ما كان سائدا في القرون الوسطى .(5) .و يمكن أن نسجل أن التاريخ الغربي تاريخ متسلسل من الأفكار فحتى الحداثة باعتبارها أحد حلقات الفكر الغربي (6). كان عصبه العقل و أساسه الذي يبنى عليه أو حتى أدعى أن بنيانه يرتكز عليه، و لقد كشفت الحداثة الغربية على ما تعانيه أوروبا المنبعثة من بعد القرون الوسطى من أزمة إنكار روحانياتها، من أجل عقلانية لم تتحل و لن تحل العقدة الأنطولوجية لشعوب استبدت بها أوهام الحل المطلق . استنادا إلى العقل وحده(7) . ليتأتى بعد هذه الحملة اللوثرية سبينوزا (8)

ثانيا : مضمون التأويل عند سبينوزا و حدوده

لقد بدأ التحرر من رقة الكنيسة باكرا حيث رأى سبينوزا و ارتأى أن المفاهيم الأولية للدين التي تروجها الكنيسة هي مفاهيم صاغها أربابها، و خرافات لفقها هؤلاء الأسياد، يصعب أن يصدقها العقل ، أفكار حول الكتاب المقدس تفرض منطقها على أصحاب العقول المستتيرة . لكن سبينوزا حارب هذه الفئة من اللاهوتيين و طريقة تفسيرهم للدين. ألف سبينوزا كتابه في اللاهوت و السياسة و كان يريد تقديم تأويل جديد للنصوص المقدسة، حرص من خلاله بيان أن لا تعارض بين هذا التأويل الجديد و الحرية المطلقة للتفكير، يقول سبينوزا عن كتاب اليهود "إن لغة هذا الكتاب يغلب عليها المجاز و الاستعارة ، و ذلك أمر مقصود و متعمد، لأنه يتناول النزعة الشرقية ، و ميلها إلى الأدب الرفيع و تزيين الألفاظ . و المبالغة و الوصف و التعبير . ما أدى بسبينوزا إلى الدخول في صراع كانت قد اشتعلت ناره في أوروبا منذ عصورها التجديدية

الأولي ، خاصة بين القائمين على حروف الكتاب المقدس و أنصار فقه اللغة أو ما يعرف في الغرب الفيلولوجيا. هذا الاتجاه الذي ركز على ضرورة تحقيق الكتاب المقدس تحقيقاً لغوياً و تاريخياً من أجل التوصل إلى نسخة صحيحة . يعلل سبينوزا في أطروحاته أسفار التوراة سفر سفر ، و يحاول أن يبين الصدق التاريخي لهذه الروايات ، ورفض أن تكون هذه الروايات قد كتبها موسى .في زمنه ، حيث يقول لم يكتب موسى مقدمة سفر التثنية لأنه لم يعبر نهر الأردن و منطقته في ذلك كما ورد في كتابه "اللاهوت و السياسة" ما عبارته أن الوحي يختلف من نبي إلى نبي بحسب طبعه و خياله و ظروفه وعصره ، و بالتالي فنحن مضطرون لاستخدام النقد العقلاني للنصوص من أجل فهم معنى كلامهم، و يظهر استعمال سبينوزا للمنهج العقلاني حينما يتعامل مع هذا المقطع من الكتاب المقدس . "يا شمس قفي على جبعون و يا قمر على واد أيالون " فوقفت الشمس و ثبت القمر إلى أن انتقلت الأمة من أعدائها" و في تصور سبينوزا أن هذا النص يخالف قوانين الطبيعة لكن سبينوزا يقدم تفسيراً غير الذي يفسره أنصار الكنيسة ، بل علي ضوء المنهج العلمي الناشئ و ما تفرضه الطبيعة من قوانين انه الإنصات لقانون الطبيعة علي رأي سبينوزا ،يقول سبينوزا في كتابه الرسالة في "اللاهوت و السياسة "و إن قوانين الطبيعة و أوامر الله الخالدة هي شئ واحد، و إن كل شيء من الأشياء تنشأ من طبيعة الله اللانهائية، و أن الله بالنسبة للعلم مثل قوانين الدوائر إلى الدوائر كلها، يظهر من هذه الإحالة بيان السجل القائم بين العلم أو العقل، و الدين ، بين قوانين الوحي و قوانين الطبيعة ،على الرغم من أن سبينوزا كان دائماً يواجه الانتقادات الكثيرة التي تسفه مقام الكنيسة التأويلي، و يعيب عليهم الرغبة الجامحة في استعمال التأويل مطية لتبوء المكانة المرموقة، و الحظوة و الفوقية على عموم الناس، بعيدين في ذلك عن حقيقة النص، و هو إذاك تأويل تعسفي يصطبغ بالخرافة و مبتعداً عن قانون الطبيعة و الكون و روحهما ، كما يراه سبينوزا ،انه يرى أن الحرية في التأويل يجب أن تكون نابعة من حرية داخلية ، يستشعر المتأول أن لا أحد له الحق في احتكار فعل التأويل و الحقيقة المرتبطة به ، ما يعني إلغاء لأي سلطة كانت ،و في معظمها سلطة الدولة أو الكنيسة ، لقد عمد سبينوزا الي هدم الميتافيزيقا القائمة على الوعي اللاهوتي او مفرزات الكنيسة الخرافية وهو ما ذهب إليه التوسير لاحقاً [ان الطابع المؤسساتي للحقيقة هو الذي يؤدي الي وجود الصراع حول الحقيقة]. و ليس سلطة الحقيقة كما يصفها ميشال فوكو[أن الحقيقة لا توجد خارج السلطة]بل إنها ذاتها هي السلطة لأنها نتيجة اكراهات متعددة ، إنه من غير الممكن تاريخياً أن نسجل نهاية لهذه الأطروحات الإصلاحية مع هذه الفئة من المفكرين و الفلاسفة ، الذين نقدوا الكتاب المقدس بالاعتماد على المناهج التي كانت متاحة كالنقد الفيلولوجي والتاريخي .فقد استمر هؤلاء الكتاب بهذا الأسلوب في التعامل مع النص الديني و لكن بأكثر جرأة و أكثر بروزاً للعقل وعناوينه ، و لكن العقل في هذه الممارسة ليس إلا فكاكاً أيديولوجياً يتمسح بمسوح العلوم و الموضوعية أحياناً، و أحياناً أخرى يظهر هذه العدائية باسم العقل و التحرر و الإنسانية في كثير من المرات ، و يحصل التغيير في المناهج التي تتناسب و المرحلة، و نوع التطور الحاصل في هذه المناهج ،حتى يتبرأ من الأساليب القديمة في التعامل مع النصوص ،و تصبح أعمالهم في ذلك تجديدية و تحديثية

لزومية تحرير الإنسان وتنويره في الفكر الأوروبي

يعتبر التنوير في الفكر الغربي من أهم المحطات و المنعطفات الكبرى في الفكر الغربي من حيث الأسس و المبادئ، فهو حركة تاريخية ثقافية أسست للدفاع عن العقل و مبادئه كوسيلة لتأسيس المعرفة و الأخلاق بدلا من الدين . و قد شكل التنوير إطارا للثورة الفرنسية و مهد لكثير من حركات التحرر في العالم التي كانت تناضل من أجل خلع ربة الكنيسة . بحيث لا يعتبر التنوير مذهباً أو مدرسة فلسفية مستقلة، بل هو تيار فكري يعتمد على الاستخدام العام للعقل الإنساني في قضايا . الإنسان، و الكون، و الطبيعة، فلا سلطة على العقل إلا العقل ذاته. فمعنى التنوير مستقدمة من لفظة نور التي تعني " ضد الظلام " و هو بذلك الظلام الذي كان سائداً في أوروبا ، حيث يتميز بالفكر الذاتي المستقل. و الحكم على أساس التجربة (9). و في مضمون التنوير الذي يهمننا و يعيننا في هذا المجال أنه (إقصاء اللاهوت بإحلال الطبيعة و العقل بدلا من الفكر الغيبي الثيولوجي، و الخرافي، في تفسير ظواهر العالم، و وضع قوانينه، إنه تحرر من السيطرة الطاغية سيطرة الملوك و الأمراء، و من سيطرة التقاليد . و الكنيسة (10) كل ذلك تغيير على مستوى الاجتماع ، إن معالم التنوير تتحدد في تلك الفلسفة العقلانية التي تهدف إلى إدارة العقل الإنساني، و تخليصه من مزالق الطرح الأظلامي، فهو إعادة اعتبار العقل الطبيعي و الاعتماد على كل منتجاته في مقابل أطروحات الكنيسة . فالمبدأ الوحيد إذن هو إلغاء أي سلطة على العقل و تركه طليقا ، لا يزرع تحت أي قوة دينية، كانت او فكرية ف الحروب الدينية و القتل باسم الدين . خاصة ما يسمون بالمارقين أو الهرطقة التي تعني رفض تعاليم الكنيسة التي تستوجب القتل و قتل العلماء و تعذيبهم و تخويفهم باسم الدين مثل ما حدث مع علماء الفلك و الفيزياء ، جاليلي و كوبر نيكوس و نيوتن و غيرهم . كما فشلت محاولات عقله الكتاب المقدس ، التي خاضها توما الأكويني و تلميذه ألبرت ، لقد غلب ادعاء رجال الدين بامتلاكهم الحقيقة المطلقة و ظهور الانشقاق داخل الكنيسة مما نجم عنه ظهور الطائفة البروتستانتية (11) و انشقاقها عن الكاثوليكية. هذه العوامل جعلت من التنوير فكرة تعيد الاعتبار للعقل الطبيعي ، العقل كما فهمه أرسطو و عمل على صيانتها أفلاطون، و غيرهم، هذه المفارقة العجيبة بين العقل الذي تريده الكنيسة و العقل الذي يريده أنصار التنوير . الذين يعتمدون التحليل محل الاستنتاج العقلي .، فهي نهضة فكرية عقلية ابتداء تختلف في منهاجها و أسلوبها . عن ثقافة العصور الوسطى ، وهي خروج كما يسميه "كانط" خروج الإنسان من القصور العقلي و بلوغه سن النضج ،النضج الذي يرسى ثقافة الإنسان التي تتخطى حدود الزمان و المكان ،و على الرغم من أن هذه الطروحات التي تمجد الإنسان و العقل و الحرية، مكانها كان فرنسا، إلا أنه تعداها إلى أوروبا قاطبة. صحيح أن التنوير لم يكن مجتمعا في تيار أو مدرسة، لكنه كان ثقافة إنسانية ،تطرح أسئلة حرجة على المؤسسات التقليدية . و كان منطقيا أن تقاوم هذه المؤسسات كل أفكار التنوير و العقل التي كان أبرزها :

"أولا : نمو شعور العقل بنفسه و قدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده بعد أن تزيل كل ألوان العبودية التي ورثتها من قبل عبودية الكنيسة و تعاليمها .

ثانياً: الشجاعة و الجرأة التي لا تتأرجح في إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل.

ثالثاً: الإيمان بتعاون جميع المصالح و المنافع، و الإيمان بالأخوة الإنسانية على أساس هذه الثقافة وحدها. (12) . لقد ساهمت أفكار التنوير على يد "ديدرو" في موسوعته الشهيرة. و أفكار "فولتير" في فلسفته الجديدة للتاريخ، التي تؤمن بقدرات البشر و تتفاعل بتقدمهم و تطورهم، مع ظهور أفكار "مونتسكيو" و في كتابه روح القوانين (الدساتير) لقد كانت هذه القدرات العقلانية و التاريخية و الحرية و الفصل الكلي للحياة و مشاغلها عن رهبة الدين بارزة عند كل فيلسوف ، و في كل فترة طويلة خمسين سنة الثانية بعد القرن الثامن عشر ،لقد حاول التنوير في أوروبا رفض الدين الكنسي و رفض كل ما يأتي من الكنيسة لأنها كبلت العقل الإنساني و احتكرت المعرفة، و مصدرها و الحقيقة بمطلقيتها، و تفسيرات الباباوات و القساوسة و الرهبان. إذن هي مرحلة جديدة في التعامل مع الدين و مع الكتاب المقدس ،مرحلة الانسلاخ من الدين و من تقاليده و أعرافه و قوانينه، بل هي مرحلة تدنيس المقدس و إعادته إلى الأرض من عليائه . لقد ولى زمن أن العقل لا يناقش و أن لا يسأل ،ولى ذلك الطغيان الكنسي لأنه (كان طغيانا من أبشع ألوان الطغيان في التاريخ و كان حقا على أوروبا حيث تنورت أن تخلع هذا السلطان الطاعي و تتسلخ منه (13) إحساسا بالكرامة و فرار من الذل . و الهوان. "ان الأرباب المزيفون في المجامع المقدسة و علي عرش البابوية هم الذين حرموا العقل من أن يفكر، و فرضوا عليه أن يسلم تسليما أعمى بأمور لا يستسيغها و لا يعقلها " (14). بهذه العدائية المتنامية بين العقل و الكنيسة ، بين النص المقدس المفترض صحيحا عند أرباب الكنيسة و بين العقل المنشود بمبادئه و و مناهجه، كشفت العلاقة المتطورة التي ظلت تفرض نفسها في التاريخ ،بهذه الحركة التنويرية خرجت أوروبا و الغرب عموما من حالة التخلف و الجمود إلى مرحلة جديدة، تميزت بسيادة الفلسفة العقلانية المتجاوزة لكل إشكال الخطاب الديني، و مكرسة لمفاهيم الحكم المدني ، المساواة و العقد الاجتماعي ،و حقوق الإنسان . إن هذه الملاحظات التي نود أن نوردها لها من الدلالة ما يستحق الوقوف عنده. و هي من الأهمية بحيث إنها تشرح لنا كيف انتقل لنا الفكر الغربي في شكل مواضيع حول النص و تأويله، او في شكل مناهج و آليات تحليل توصف أنها علمية. كما تبين المبررات التي يسوقها أنصار المناهج الحداثية في التعامل مع النص الديني .و المقاربة التي نود أن نوردها بين أركون و سبينوزا حول اتجاههما و فروقهما كما نقاط التقائهما وتعاملهما مع النص تكشف بوضوح ما نحاول بيانه .

التأويلية الحداثية للنص الديني عند محمد أركون

تعتبر قراءة النص القرآني من أهم السجلات الفكرية و الحضارية التي تميزت بها فترة ما بعد النهضة العربية، خاصة بعد بدايات القرن التاسع عشر و ما تلاه و إن اهتمام المثقفين العرب بقراءة النص الديني و تأويله يندرج ضمن ما يتمتع به النص المقدس من أهمية في صياغة العقل العربي، حيث يعتبر أحد المفاتيح الهامة التي يجب امتلاك ناصيتها لفك غموض النهوض الحضاري. إن مقصدهم من ذلك تنمية المنهجيات التقليدية بما يتناسب و المنهجيات الغربية الحداثية، إذ يتعلق معنى التأويل بتلك المستخلصات العقلية والتفكيكية النفسية، و أشكال المقاربات و المقابلات و آليات الربط التي تحدث بواسطة العقل ،وتستخدم فيها أساسيات التفسير، و شروط التأويل الموجودة في كتب السلف، إذ عرفه الجرجاني -التأويل-

فحدده على أنه صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافق للكتاب و السنة "(15) وحدده ابن رشد " أنه إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقة إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجويز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحق، أو مقارنة أو غير ذلك من الأشياء التي عدت في تعريف أصناف الكلام المجازي(16) ، لقد حاول الباحثون الحداثيون استثمار التأويل التقليدي و تطويره متأثرين بالقراءة و التأويل الغربي التنويري في تعاملهم مع النصوص التقليدية ، و كان أركون أبرزهم في ذلك. حيث تعتبر قراءة النص الديني عند محمد أركون و تأويله أحد أهم المحاور الأساسية في مشروعه الفكري النقدي و يعتبر التأويل بمثابة الانشغال الأبرز الذي يحوز اهتمامه نظرا لأهمية القرآن و دوره المركزي في البناء الأنسقي في بلورة معالم القوة في المجتمع المثالي، خاصة في "المخيل" الذي تتركب منه المنظومة الثقافية التي توظف ما يسمى بمجتمعات النص، لكن في الوقت ذاته يعتبره محمد أكون أحد العوائق النهضوية في المجتمع العربي الحديث من منطلق أنه نص مفتوح "حمال أوجه-". إن التعامل مع النص القرآني عند أركون يختلف عن المعتاد التقليدي في قراءة النص الديني المنتمي إلى الفكر الإسلامي، فهي منهجية جديدة كل الجدة تريد أن تتعامل مع النص القرآني بطريقة حديثة تستخدم المناهج النقدية المعاصرة، وتلك المناهج في العلوم الإنسانية كالأنثروبولوجيا والفيلولوجيا و حتى النقد التاريخي (17) حيث يصر أركون على هدم قدسية النص للاعتبارات التالية كون القرآن المعجزة الخالدة ، و منهج في العقيدة ، و الشريعة و السلوك و الأخلاق . وإهدار قدسيته تعتبر خطوة أولى للنقد و التشكيك فيه ، ثم تركه لعدم ملاءمته مستجدات الحياة (18) ، إن المفسرون في رأي أركون كبشر يأخذ من كلامهم و يرد ، فهم غير مقدسين و لا معصومين ، و عليه لا يحمل التفسير من القداسة ما يحمله النص نفسه، ... أراد أركون أن يبين أن النص خطاب نفرغ عليه طابع القداسة، و اللاهوت، لكن كونه كذلك لا يعني قابليته للتحليل، و الدراسة التطبيقية التي يسميها بالإسلاميات التطبيقية ، لأنه كما يقول نصر حامد أو زيد في كتابة النص و السلطة و الحقيقة "لأنه خطاب لغوي تجسد في لغة إنسانية ، و هي اللغة العربية بكل إشكاليات سياقها الاجتماعي، و الثقافي و التاريخي، فهو إذا ليس نصا إلهيا ، . له خصوصيته،" و نعني به الكلام الذي تلفظ به النبي بصفته قائدا لجماعة المؤمنين و ليس بصفته كأداة للإرادة الإلهية و ناقل لكلام الله "(19) (بل إخضاعه للتأويل و تفكيكه ويعتبر قراءة حضارية ،ذلك من خلال توظيف كل المناهج الممكنة، من أجل فرض قراءة تاريخية عليه، و إخضاعه لمحك النقد التاريخي المقارن و للتحليل الألسني - التفكيكي . و التأمل الفلسفي المتعلق بإنتاج المعنى ،و توسعاته و تحولاته، و انهدامه، كل ذلك في تصور أركون قصد "استنطاقه عن مشروعيته و حديثه كاشفا عن تاريخيته الأكثر مادية و دنيوية و الأكثر كما قال يومية و عادية . "(20). إن هذا النوع من التأويل و القراءة (21) و الفهم على اعتبار أنها من مستويات التأويل ،و هي في الأساس فعل واحد للنص الديني -القرآني- ، و مضمونه التي يباشرها أركون، تدخل ضمن تصور خاص لظاهرة الوحي عموما ،من منطلق أن هذا النص يسري عليه ما يسري علي أي نص ، فإذا كانت التوراة و الأنجيل قد تعرضت للنقد و التفكيك وطبقت عليها كل المناهج المعاصرة في قراءة النصوص، فإن القرآن باعتباره يشترك معها في نفس الخصائص العامة لكتب الوحي، لا

ينبغي أن يخرج عن هذه القاعدة ،و يجب إخضاعه لنفس المعايير النقدية ، وحتى و أن كانت في تصور أركون أنها دراسة علمية بحته فإن غرضها ليس الانتقاص من المقدس أو المساس به، و إنما تعني فهما أفضل لتجلياته و تحولاته . فليس النص القرآني إلا نص تشكل عبر التاريخ ،مثله في ذلك مثل النصوص الشعرية . كالشعر الجاهلي و غيرها من نصوص منتجات الفكر الإسلامي. إن استعمال أركون للنقد ا لتفكيكي في إزالة الركाम عن- الحدث القرآني- كما يراه هو محاولة كشف الغطاء عن المحجوب، و هو تعبير بإثبات كينونة النص، و ليست اعتراف للنص بالوجود، بل هو مجرد نزاع لهالة القداسة عن النص و فقط و التقليل من أهميته لأنه في تصور أركون ، حجب لكينونة النص و من المفترض التعامل مع النص القرآني دون تضخيم له، لننظر الي هاشم صالح و هو القريب أركون "هدف أركون عن طريق استخدام المنهجية السيميائية و الألسنية في الصفحات التالية تحرير القاريء المسلم من هيمنة النصوص المقدسة و لو للحظة من الزمن ،كي يستطيع ان يفهم العلاقات الداخلية للنص بكل حيادية و موضوعية ،و لكي يهيئه فيما بعد لاكتشاف العلاقة بين النص و التاريخ (تاريخية النص)،.من المعروف ان الرهبة النقدية لهذه النصوص من (تورا و إنجيل و قرآن) تمنع المؤمن أو حتى الإنسان العادي من رؤيتها كما هي عليه في الواقع، أي كنصوص لغوية تستخدم لغة بشرية محددة "(22) . إنها مناهج النقد و التحليل و التفكيك و النقد التاريخي ،التي تضمن عدم تراكم اللافكر فيه ،لقد ركز أركون في تأويل النص على العقل و العقل وحده، العقل الإنساني الذي يتأثر بكل ما يحيط به من منتج عقلي، ومنتج انساني بشري يتعامل بالموجود من المناهج و الرؤى الحداثية، ، حيث يصبح للعقل السلطة الوحيدة التي يتعامل بها مع النص القرآني، باعتباره نص لغوي يخضع لآليات التفكيك التي تطبق على باقي النصوص كوجه من أوجه التأويلات اللاتقليدية ،التي تحاول أن تتبرأ من قائله قدر الإمكان، حتى تتناسى الهالة القداسية التي تحوم به و تحيطه ،و هو التيار الذي يرى في النص بين ظاهر و باطن، متأثرا بما أحدثه الصحابة مثل عمر من اجتهادات مع النص ،كإبطال حد السرقة، أو التأسى بعلي كرم الله وجهه في مقولته النص القرآني " نص مشكل حمال أوجه " و من بعد تأثرا بأراء بالمعتزلة. ينبغي تغيير برامج التدريس في الثانويان و الجامعات العربية، لكي تولد أجيالا تفكر عن طريق العقل ،لا عن طريق التكرار و النقل، ينبغي أن يفتح الطلاب أعينهم على التراث الإسلامي المشرق الذي يشكل فيه العقل علامة بارزة وهذا النقص أكبر دليل على أن المسلمين لا يزالون يفضلون "استهلاك " القرآني في حياتهم اليومية على أن يخضعوه للدراسة و التفحص العلمي الحديث "... (23). ان هذا التأويل للآيات و السور القرآنية نلمسه من خلال نقطتين هامتين: اولا : إنبنيت على الخلفية التأويلية الاعتزالية التي تتبنى العقل أداة في التأويل ثانيا : فهي مبنية على محتوى المنظومة التأويلية الإستشراقية أو الحداثية التي لا يجد محمد أركون حرج في إخفاءه مصدرها،

أركون و سبينوزا تقارب في الرؤى

و يمكن لنا أن نستشف نوعا من التقارب في الرؤى و الطروحات الفكرية بين سبينوزا اركون خاصة في مسائل عامة يذكرها سبينوزا نجد صداها يتردد عند محمد أركون

أولا : الاهتمام بنقد الكتاب المقدس و ذلك بالاعتماد على فقه اللغة "الفيلولوجيا"، أي "النقد اللغوي و التاريخي للكتاب المقدس" وهذا ما نجده عند أركون جليا في مفهوم التاريخانية و النقد اللغوي لتحقيق القرآن. ثانيا: الاعتقاد عند سبينوزا ببشرية الكتاب اليهودي، و أن موسى لم يكتب التورات و هو ما يعبر عنه أركون "بالظاهرة القرآنية" أو القرآن. لقد شكك في نقطتين هامتين هما النبوة و المعجزة و لا ندري هذا التقارب في الطرح مع أركون من قبيل الصدفة في هذا النوع من العمل، أم إن هناك ما يستلزم الوقوف عنده ، لقد اعتبر موسى إنسان موحى إليه بواسطة المعاني بينما الألفاظ هي من صنعه ، أي ان موسى تصرف في النص الإلهي، لا ندري شكل هذا التصرف اهو من خلال تحويل المعاني ام بواسطة المحافظة علي المعني، و استبدال الألفاظ و التصرف فيها، ثم توالى تأويلات كثيرة للكتاب المقدس ، و قد كان بعضها مشككا في صدقية النصوص و أصلها. ورفض منطقها عقلا وتجربة ، خاصة توماس هوبز بعده ، و جان استوك (1753) الذي اعتبر أن موسى كتب التوراة مستعينا بمصدرين سابقين . واستخدم إسمين هما "إلوهيم" و"يهون" و هما لفظين قريبين من لفظة الجلالة، و قد زاد على ذلك البخوت (1780) . و قال في دراسة الكتاب المقدس . حين خلص إلى أن الأسلوب الذي كتب بها التوراة ينقسم إلى أسلوبين متميزين . و كذلك فكرتين متميزتين . خاصة ما تعلق بسفر التكوين . و قد أدى به ذلك إلى القول أن موسى أخذ من مصدرين مختلفين ثم جاء شخص آخر و أعاد صياغته . مفندا مقالة جيدس (1792) الذي اعتبر الكتاب المقدس وصل إلينا كأجزاء متفرقة .(24) هذا من جهة، و من جهة أخرى أن النبي أوجد المعجزة كحيلة ابتدعها من ذاته ليبين أنه مختار من عند الله (25) و هي نفس ما أقدم أركون علي تسميته عصر التدوين ، و الظاهرة القرآنية ، و المدونات الرسمية ، او المغلفة و الحديث المستفيض من طرف أركون حول القرآن المكي و المدني

ثالثا: المنهج العقلي عند سبينوزا هو ذاته المنهج العقلي المعتمد عند أركون لاحقا في دراسة الظاهرة القرآنية أو دراسة الوحي ، فعند سبينوزا لغة التوراة مجازية مرسله . تعبيراتها تتسجم مع روح الشرق، و كذلك هي لغة القرآن عند أركون مجازية تعتمد البلاغة و التصوير . و يتفرع عنه ما يلي

1 تركة المنهج

إن الاعتماد علي فقه اللغة التاريخي في التعامل مع صدقيه النصوص الدينية في الكتاب المقدس في وقت مبكر جدا و انتشاره مع الدلالات التي يمكن أن يطرحها ، منهج بهذه الجرأة في زمن كانت الكنيسة تحبس فيه الأنفاس و تحسبها ، أنفاس المعارضين و المشككين، يطرح ذلك أكثر من قضية بالغة الأهمية .لقد أصبح المنهج اللغوي سيفا مسلطا على كل النصوص التاريخية المقدس منها و المندس ، في زمن سيطرت الكنيسة علي كل شيء و انتشار هذا المنهج كما ذكرنا و اعتباره من العلم الذي لايجوز معاداته أو عدم الاعتراف به، أن ذلك يعكس انعزال الكنيسة الفكري و الثقافي و سطوتها السياسية، و انه لا احد يؤمن بأفكارها غير أولئك الذي تقهرهم على أتباعها ، أي أن أفكار الكنيسة لا يوجد من يسندها من عامة الشعب المسيحي عقيدة و إتباعا ،إن ذلك كل إسقاط لهيبة النص التي تتجمل بها كل النصوص الدينية منذ فجر التاريخ ، إن ما يجب الوقوف عنده بعد هذه الإشارة هو التساؤل المشروع عن ما مدي انتشار هذا المنهج

عند المفكرين المسلمين وقد كان أركون أبرزهم ؟و هل هذا المنهج انتشر تحت مسماه الأصلي أم تحت مسميات مختلفة؟ مثل قصة "جمع المصحف الشريف" أو الاختلاف في القراءات، أو مسالة الآيات المنسوخة و الاختلاف حولها ،

2 العقلنة و النص إننا نستنتج أن التفسير العقلاني للنصوص و محاولة التجديد في محتوى التفسير، و إعادة إنتاج التفسير بلغة العقل تتلاءم و روح العصر لم يكن بدعة علمية في عصرنا ، إنما هي معزوفة يعاد عزفها في كل مرة ترى المجتمعات ان التفسيرات القديمة لا تستجيب لتطلعاتها و أفكارها، في فكرة ابتدعها سبينوزا لوثر وبلاشير وريجيس في فقه اللغة و منتغمري وات و غيرهم من الذين أرادوا تعميم تطبيق المنهج العقلي على الظاهرة الدينية لتعاد هذه المنهجية مع محمد أركون ليدعو إلي تطبيق السيميائيات و المنهجيات النبوية، و على البني اللغوية للنص القرآني ،و بيان العلاقة بين الوحي و التاريخ، بغرض كما قال أركون زحزحة مفهوم الوحي التقليدي، الذي قدمته الأنظمة اللاهوتية و تطويره لأكثر محسوسية و موضوعية ،و أن ذلك يعكس ما سردناه من قبل الصراع التاريخي بين دعاة العقل من جهة و دعاة النص، صراع بين الفلسفة و اللاهوت .هذا الصراع الذي جسد نفسه في المراحل المختلفة حيث يصبح النص مرجعا عند كثيرين، كما يصبح العقل مرجعا أيضا عند كثيرين، . و تجد ذلك جليا في الفكر الغربي بين أنصار التفسير اللاهوتي و التفسير العقلي البحث .و تجد ذلك أيضا في الفكر العربي بين المعتزلة و الأشاعرة أو بين دعاة الرأي و دعاة النص ،أو بين من يتمسكون اليوم بتفسيرات القدامى، و من يحاولون قراءة النص الديني قراءات مختلفة ممثلا لهذا الاتجاه .

3 الأيديولوجيا و صراع الانتماء للنص .

انه يجب أن نعلم ابتداء أن هذا الصراع بين المتتورين و بين أرباب الكنيسة يظهر تمللا واضحا اتجاه ما يعرض من أحكام تنقل كاهل المؤمن بالأفكار المسيحية و التي تعتبر جزءا منها ناتج عن خيالات الكنيسة، فمن جهة يحاول هؤلاء المتتورين رفض هذه الأحكام بدعوى مخالفتها للعقل ،أو مناقشتها من مبدأ عقلي ،قصد بيان تهافتها، و محاولة إعطاء قراءات تأويلية، أو نقدية للنص الديني ،على الأقل ،للتقليل من سيطرتها، و زعزعة نفوذها و هيبتها، أو حتى قدسيته، و ما كانت تمثله و هو تعبير عن غضبهم.الذي قد لا يكون علنيا لهذه النصوص، لكن بالمقابل لا يجروون على رفض هذه النصوص علنا ،و مباشرة خوفا من بطش الكنيسة، و هو في الحقيقة موقف ليس عقلي و ليس منطقي من هؤلاء المتتورين على الرغم من أننا نتلمس لهم الأعذار لموقفهم ذاك، خاصة مع ما كان يلاقيه هؤلاء من بطش الكنيسة و قهرها. إن هذا المنهج اللا واضح نجده أيضا عند دعاة العقل في اركون و ممن تأثروا بالثقافة الغربية، و ممن يحملون شعلة الثقافة و الفكر الإسلامي و يدفعون عنه الشبه، إن هذه الحالة في النفس البشرية و هذه التمثلات التي تحدث لها تظهر و تبرز على مستوى الأفكار، و هو ما حدث بين الأقطاب المتصارعة: أنصار الكنيسة، و دعاة العقل.و بهذه التمثلات النفسية البارزة على مستوى الأفكار ظهرت الأيديولوجيا حيث أصبح الصراع صراعا أيديولوجيا تظهر الخصومة فيه مكفولة في شكل أطروحات العقل و مبادئه ،و تدعوا الانتصار له و تظهر من جهة أخرى الأيديولوجية الدينية، حيث يحاول أنصارها الانتصار للدين ،ولنا أن نتوقع عمر الصراع

الأيدولوجي، حيث كلنا يعلم أن الأفكار لا تموت لكن تبعث من جديد، لقد ظل هذا الصراع سنين طويلة و تحول من صراع عن الحقيقة ليحل عنها صراعا أيديولوجيا ،لا تنتهي هذه العدائية أبدا بموت أحدهما ،هذه الخصومة الأيدولوجية إنتقلت إلى الفكر الإسلامي و أقطابه من سبينوزا إلى أركون ،و لكن للأسف حضرت الأيدولوجيا و تبناها بعض من يدافعون عن حضارة الشرق أو نصبوا أنفسهم كذلك من قبيل أنهم حريصون على نهضة أمتهم، لكن للأسف حضرت معهم هذه الخصومة التاريخية التي لا مبرر لها في الفكر الإسلامي ،بل نقلوا الخصومة و إيدولوجية الصراع بين النص المقدس ،و العقل إلى بيئة لم تكن أبدا تربة خصبة لهذا الصراع، بل في الكثير من مراحلها ،هي تربة خصبة للإبداع الذي يظهر من تزواج و تناسق بين ما يدعوا إليه الدين و يكتشفه العقل. إن المنطق السليم يفترض على هذه النخبة أن تستفيد من المنجزات المنهجية الغربية و لكن دون جلب التاريخ المرير الذي مرت به أوربا في صراع العقل مع الدين او صراع النص مع الدين و ان في ذلك المسلك انحراف عن الموضوعية و العلم .

المعقولية و خفض تأثير الدين

إن هذا المشروع الأركوني المقتبس من المرجعية الفلسفية لسبينوزا لابد ان تستحضر بعدها التاريخي و السوسيوقافي "ما من شك إن هناك هيمنة قوية للموروث القديم على فكرنا، الشيء الذي جعل أدوات إنتاجنا الفكري تخضع ،إن قليلا أو كثيرا لهذا الموروث القديم بوصفه بنية عامة سواء أردنا أن نمارس تفكيراً عقلانياً أو لا عقلانياً ، و لكن الممارسة العقلانية أو التفكير العلني تجعل صاحبها يعي أكثر فأكثر هذه الهيمنة و يحاول أن يتحرر منها، هذا شيء طبيعي و لا أحد يستطيع الادعاء أنه تحرر منها نهائياً من الموروث القديم بكل سلبياته و بكل ايجابياته(26)، ان الخوف من تأثير الدين او ما يصطلح عليه اليوم الاسلامفوبيا او يا يسمي احينا بشكل عكسي معادات السامية او الخوف من الدين في شكله الموسع ليس في حقيقته خوفا من الدين و نصوصه ،سواء عند سبينوزا او محمد أركون و لكنه في الأساس خوف من الممارسات التي تنشأ باسم الدين ،اي دين كان و لذا عمد كل منهما إلى محاربة هذه الممارسات حتى لا تغطي العقل و الفكر المتحررين .

5 قدسية النص و تعالیه لقد عمد أركون كما سبينوزا في مجال التعامل مع النص الى شكل لا منضبط في التعامل مع قدسية النص والى إلغاء التعالي المفترض إزاءه و افتراض بشريته بطرق ملتوية و عجيبة فمرة مثلاً يدعي أركون أن النص كان ساعة النزول إلهيا ، و لكن حالما تكلم به رسول البشر فهو بشري ونطق به بشر علي لسان البشر و بلغتهم، فهو إذا نص بشري حتى و إن كانت كما قال معانيه إلهية أو متعالية ،فكانت إعادة القراءة و محاولة التأويل و الفهم كلها مصطلحات بمعنى حدائي قسري بحت و بروح علمانية يقول حسن العباقي في تقديمه لكتابه حول أركون "إن أعمال أركون لم تستطيع التخلص من التبشيرية والأفكار القديمة...و- هي التي بشر بها سبينوزا -بل انه أضاف الي تلك الروح أسلوبا استفزازيا مليئا بالقذح و التجريح و القذف ،ما ينم عن عجز عن تقديم البديل مع الركون إلى التكرار و التبشير بالعلوم الإنسانية و القراءة الحداثية بعيدا عن ضوابط القراءة و الفهم و التأويل، مع الغفلة عن الخصوصيات التاريخية و الفكرية(27)، ما يجعل الملاحظ لنا من أعمال أركون عن الفكر الإسلامي نموذجاً ممتازاً للفكر

الاسقاطي البعيد عن الضوابط المنهجية المراعاة في العلوم الانسانية عامة، خاصة إذا أدركنا طغيان النزعة النسبية لديه، والتي تركزها الرؤية العلمانية التبسيطية للأديان و ان عدم الإيمان بتعالى هذا النص وبقدسيته قد أفضى إلى

:القراءة التاريخية للنص المقدس يتفق أركون و سبينوزا في تحطيم الحواجز النفسية و المسافة التقديسية التي تفصل بين النص ومن يتمثلون هذا النص، و هي أولى معاول الهدم لهذا النص من منطلق أن هذه القداسة تحجب المعالجة الصحيحة للنص، إن ما قلناه سلفا سيترك المجال واسعا لتشبيهه بالنصوص البشرية و ان نطبق عليه نفس الآليات و المناهج و التي يطبقها بعض فلاسفة الغرب و متأولوه منهم ، و نقول البعض لان البعض الآخر منهم أمثال مثل بول ريكور و غادامير و غيرهم كثير ممن تحفظوا عن هذه المماثلة بين النص المقدس و النص البشري، و هو رأي الجمهور و الفئات المسلمة التي تأبى أن يتأول القرآن و يقرأ بنفس الروح التي قرأ من خلاله فلاسفة الأنوار نصوص العهدين القديم و الجديد. يلتقي أركون و سبينوزا حول فكرة الانغماس الكلي في المرحلة -لحظة لحاضر بدل التاريخ- لتحقيق تجارب تأويلية تعتمد على الذات المتلقية -الذات الإبداعية -لتوليد المعنى و اغنائها ، تختلف هذه التجربة التأويلية على تلك التجارب التراثية الأولى، و تختلف عنها بل تنتقدها في الأساس ،رافضة هيمنتها الفكرية، و طغيانها الثقافي التعسفي، بما يعني ان كليهما يريد أن ينتقل من الذات المتلقية من النص الأصلي إلى الذات التي تتلقي النص بغرض اكتشاف مكنوناته الدفينة في غير سياق يحاصر هذا التأويل، أيا كان هذا السياق، حتي ولو كان هذا السياق هو لحظات الإيمان و التدين التي كانت مصاحبة للفهم زمن الصحابة أو التابعين كما يفهم ذلك أركون، أو زمن الآباء و الرهبان و القساوسة كما يفهم سبينوزا .

إن هذه التاريخانية التي أقرها سبينوزا و أعاد إنتاجها أركون كبلت ذلك العقل لأنها مشدودة إلى لحظة دهرية الى شرط تاريخي، تتحرك بحركته و من هنا يتبدى لنا التبعية التعميمية للمنهج خاصة في كونه عمم نظريته في فهم النص ،التي بناها على فهم تاريخي خاطئ و نظري مجرد لم يمارسه أصلا إنما يكتفي بان يدعو الناس له و هو غير متيقن من كفايته ""إن الخطوط القوية التي تشكل هذه الملحمة أو هذا النسيج تمثل فعلا حقائق واقعية كان المؤرخ قد أهملها زمنا طويلا ..إن كل ما قلناه آنفا باختصار شديد حول الروح الدوغمائية و الفكر الأسطوري ،و فلسفة اللغة ،لم يحظ حتى الآن إلا بدراسات معزولة و عديمة الصلة في كل الأحوال بمفاهيم أساسية كمفهوم الاستيمى . ، لا يراعي قيمة النص و لا يري فيه صلاحية الاستخدام ،إن ادعاء تاريخية النصوص التي يحمل همها أركون لا يعني غير أن هذه النصوص لم تعد لتواكب العصر الذي نعيش فيه صرح بذلك علانية أو لم يفصح عنه ، ،فقول أركون بالتاريخية يعني تأويلا إن النص القرآني ارتبط بفترة زمنية معينة ،لا يمكنه أن يتعداها إلى غيرها و لم تعد صالحة للمكان و لا للزمان، مستشهدا بنتائج الحداثة و قراءة للنصوص التوراتية و النصرانية التي كتبت بعد نزول الوحي بعشرات السنين ، والتي استنتجوا ان في صميمها تناقضات لا تعبر عن إلهيتها أو حتي تعاليتها و قدسيته، أن سبينوزا حاول تطبيق منهجية النقد التاريخي و الذي بموجبه أصبح أكثر جرأة في استعماله للعقل فأصبح العقل فوق النص مبتعدا عن كل التأويل الذي كان يمارس تقليديا غير أن نسخ هذا الاستنتاج من طرف

محمد أركون من دون مبررات مقنعة لا يوجد ما يبرره ، يقول أركون²⁸ ينبغي أن يستيقظ المسلمون إن يفتحوا عيونهم، إن يقرأوا القرآن بعيون جديدة أن يتموضعوا في عصره و بيئته لكي يفهموه على حقيقته و عندئذ لا يعودون يسقطون عليه أفكار عصرهم و همومه و نظرياته و إيديولوجياته ، فالقرآن ليس كتابا في الفيزياء أو الكيمياء و لا في الاجتماع و الاقتصاد ، وهو لا يفرض نظاما اقتصاديا مجددا دون غيره ، و لا نظاما سياسيا هذه الأشياء متروكة للبشر لكي يحلوها طبقا لقوانين علم الاقتصاد و الاجتماع و السياسة ،(28)إنها دعوة صريحة لاعتبار القرآن تاريخي في لحظته ، لا يصلح لزمن غير الزمن الذي نعيشه فيلعب المنهج المنشود دوره في تصحيح التصورات الخاطئة للماضي الإسلامي الذي يدعى المثالية المفرطة في كل شيء قصد التأقلم مع المعطيات الحاضرة و البقاء على صلة بها ، كما يفرض هذا الطرح انطلاقا من أن آيات القرآن نزلت لأسبابها ، و بالتالي لا معني للتغني بصلاحيته للمكان و الزمان ، و هو يخاطب الإنسان أي إنسان ليتدبر شؤون نفسه، و ليست من حاجة ملحة في أن ينتظر الفرج من هذه الآيات حلولا لمشاكله اليومية الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية.

7 التشكيك في منهج الإسناد

لقد وجه سبينوزا كما أركون نقدا قويا إلى السلطة التقليدية، سلطة التفويض الإلهي، المتبناة عند سبينوزا من الكنيسة و أربابها، و من هيمنة التقليد و تعجج التراث و المدونات الرسمية من طرف أركون، إذ يتفق كليهما أن السعادة منبثها إدراك الحقيقة، و التي تعتبر موضوعا للعقل و الوحي ، إن هذه النصوص حرفت لان إسنادها و الأخطاء فيها ممكنة وواردة الحدوث سواء من حيث المتن أو الإسناد ، و بالتالي فأصحاب الكهنوت عند سبينوزا أو من كتب الحواشي و المدونات الرسمية في الفكر الإسلامي ، هي من جعلت - النص - يبتعد عن معناه الأصلي و الحقيقي ، يقول سبينوزا " لقد عزمت بجدية و بدون ادعاء، على أن أعيد من جديد بحرية فكرية فحص الكتاب المقدس، و ألا اثبت أو أقبل شيئا من تعاليمه لم أستخلصه منه بوضوح تام و على الرغم من ذلك إلا أننا يجب أن نستدرك فنقول إن الاختلاف في ظل الدين الواحد و في ظل التفسيرات المختلفة كان يحتم على سبينوزا القول بان الإيمان بالدين هو في عدم التعرض إلي الآخرين في تدينهم، لان مشكلة سبينوزا كانت مع التعصب للدين، انه يبتغي تدينا لا يصاحبه قهر و إرغام أو تسلط باسم الدين ،تسلط على الأفكار و السلوكيات، و الإيمان القهري و الاعتداء على الآخرين ، ليست عداوة مع من يعيشون بسلام و أمن في ظل تدينهم، أما أن تتحول الطقوس إلي إجبار فهذا ليس بدين و لا بتدين، لكن بالنسبة لأركون لم تكن هذه الأفكار و الرؤى إلا عناوين لا تمت إلى الواقع بصلة و عليه يمكن ان نسجل أن هذه المنظومة التأويلية التي ابتدعها أركون تحاول في الأساس أن تلتقي مع مشروع سبينوزا التأويلي في تخليص قضايا الإيمان و التدين من إفرازات الوعي المتجدد و المستحدث وفق أغراض كهنوتية أو سياسية أو ميتافيزيقية ، يقول أركون " ينبغي أن يستيقظ المسلمون وأن يفتحوا عيونهم، أن يقرأوا القرآن بعيون جديدة و أن يتموضعوا في عصره و بيئته ، لكي يفهموه على حقيقته و عندئذ لا يعودون يسقطون عليه أفكار عصرهم و همومه، أو نظرياته و أديولوجياته " (29) و هو يعبر بذلك عن مصاحبة الاختلاف للاديولوجيات .ويضيف قائلا : " و هناك تضاد آخر أثر في طريقة استخدام العقل في الساحة

الإسلامية، هو ذلك التضاد الكائن بين أهل الاجتهاد و أهل التقليد ،و هو يعكس تمايزا اجتماعيا أيديولوجيا على أرض الواقع (30) عمدت هذه الإصلاحات كما قلنا سابقا إلى إلغاء نفوذ الكنيسة و طغيانها ،لكن ليس المقصود بطغيان الكنيسة المادى ، كالذي كان موجودا من قبل مثل ، محاكم التفتيش و إرهاب الكنيسة الهمجى، الذي وصل إلى الحرق بسبب اعتناق الشخص لأراء ابن رشد التتويرية، أو امتلاكه بعض كتب العقل التي تسفه أفكار الكنيسة ، إنما المراد الطغيان الفكري ، فقد كان هذا النوع من الطغيان سافرا كاسحا لكل شئ ،فكان رد الفعل كذلك ، يصفه د سهيل عروسي "" إن فلسفة التتوير في القرن الثامن عشر يمكن وصفها أنها تيارا اجتماعيا كاسحا "(31) "و كان الغرض كما قلنا تفكيك سلطة الكنيسة الدينية و الزمنية، و تحرير فهم النصوص من وصايتها و هيمنتها لتنتقل هذه القراءة التأويلية الحداثية للنصوص، من التربة و المناخ في الغرب إلى البيئة الإسلامية حيث اجتهد بعض المفكرين وحتى المستشرقين المتتورين ثم بعدهم المتتورين من الفكر الإسلامي و من بينهم محمد أركون حيث اجتهد في نقل مصطلح التأويل والقراءة و الفهم و حدود الألفاظ والنص و المعنى، بالمفهوم الغربي إلى الفكر الإسلامي بلوازمه التي يرفضها بعض من ينتسبوا إلى الفكر الإسلامي، يقول محمد أركون ""إن فصل الكنيسة عن الدولة و المعارك التي حصلت بين العلمنة و رجال الدين ، تعبر بالدرجة الأولى عن الصراع بين مفهومين للمعرفة، و للعمل التاريخي الملائم لها، نجد من وجهة النظر هذه ان المسلمين الذين يرفضون فتح هذا النقاش بحجة انه يخص الغرب فقط يعبرون بكل بساطة عن عجزهم عن دراسة تاريخهم بالذات ،و التفكير فيه بالمعنى القوي و المليء لكلمة تفكير"(32) هذه الجهود التي ذكرنا في القراءة الحداثية و التأويلية للتراث و النصوص الدينية تهدف إلى إعادة توجيه الحضارة الإنسانية وفق مفاهيم و أدوات العقل الوضعي ،و تكريس التبعية للعقل الغربي ،فإذا كانت هذه القراءة للنص الديني تتسجم مع أزمنة معرفية و أطوار عرفها المجتمع الغربي باعتبار أنها الفضاء الحضاري الذي تشكلت فيه هذه الأفكار منذ انطلاق من خلال حركة الإصلاح الديني فإن تبيئتها لتتصهر مع الفكر الإسلامي تحتاج إلى إعادة نظر.

الهوامش

- 1 تراجع محمد قطب مذاهب فكرية معاصرة دار الشروق الطبعة السادسة ص 166
- 2 كيجل مصطفى، الأنسنة و التأويل في فكر محمد أركون، الرباط دار الإيمان، ا. طبعة 2004 ص 56
- 3 لقد كانت الكنيسة تبقي علي الكتاب المقدس مكتوبا بلغته الام لكي تحتكر تفسير الكتاب دون بقية العامة من الناس حتي يتسني لها التعامل معه وفق ارادتها
- 4 بول تيليس، الشجاعة من اجل الوجود، ترجمة ،كمال يوسف حسين،بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات، الطبعة الثانية 1987، ص، 89،
- 5 كيجل مصطفى، الأنسنة و التأويل في فكر محمد اركون مرجع سابق ، ص 56
- 6 إن محاور عامة ظلت تهيمن على الفكر الفلسفي الغربي ابتداء من أفلاطون و أرسطو و حتي أقطاب الفلسفة الحديثة و المعاصرة فالإنسان ووجود الإنسان و عقل الإنسان و تعرف الإنسان و محيط الإنسان كلها محاور ظلت تتكرر بمسميات و عناوين مختلفة و لكن جوهرها واحد هو الإنسان في الوجود
- 7 نديم الجندي، الإستشراق والعولمة، لبنان ، دار الفرابي ، ، الطبعة الأولى 2012، ص 31

- 8 باروخ سبينوزا 1632 فيلسوف هولندي يهودي . دارس للتاريخ و علم اللاهوت ، و تاريخ الأديان . درس التوراة . و تعليقات التلمود و درس اللغة اللاتينية التي بواسطها ولج إلى دراسة الفكر الأوربي في العصور القديمة . تأثر بالرواقيين
- 9 عبد اللطيف الشيرازي، مصطلح التنوير، محاضرة جدة بمجمع الفقه الإسلامي كلية الآداب ، 2005
- 10 إسماعيل شرف الموسوعة الفلسفية، عمان ، الاردن دار أسامة ، الطبعة الرابعة 2008 .، ص 70
- 11 ابراهيم الزين :تاريخ الفلسفة من قبل سقراط إلى ما بعد الحداثة ، دار الكنوز للنشر، ط1 ، ص 270
- 12 محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث و صلته بالاستعمار الغربي القاهرة، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة عشر، 2005 ص 252
- 13 محمد قطب مذاهب فكرية معاصرة ،بيروت .دار الشروق .، الطبعة الرابعة ، 1983، ص 31
- 14 محمد قطب، ، مرجع نفسه ، ص 40
- 15 الجرجاني - التعريفات مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر و التوزيع - بيروت 2006 مادة التأويل
- 16 ابن رشد: فصل المقال، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة بيروت، ص 19
- 17 إیراجع محمد اركون الفكر الاسلامي ،نقد و اجتهاد ،ترجمة هاشم صالح ، المؤسسة الوطنية للكتاب لافوميك، 1993، ص 60
- 18 راضي محمد ابن السيد جبريل، مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين، عرض و نقد ندوة القرآن الكريم الرياض 1998، ص 273
- 19 يرابع في هذه الجزئية كتاب نصر حامد أبو زيد- النص السلطة و الحقيقة، ص 126
- 20 محمد اركون الفكر الاسلامي ،نقد واجتهاد ،ترجمة هاشم صالح ، المؤسسة الوطنية للكتاب لافوميك، 1993، ص 96
- 21 لا يفرق محمد أركون بين المصطلحين اذ يقصد بالتأويل القراءة و يقصد بالقراءة التأويل و الفهم ،يراجع محمد اركون الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد ترجمة هاشم صالح
- 22 أركون محمد الفكر الاسلامي نقد و اجتهاد ، مصدر سابق ص 73
- 23 اركون محمد المصدر السابق ص 79
- 24 زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة، القاهرة 1932 ص 142
- 25 الملاحظ اليوم أن الأنجيل ليست واحدة بل هي أجزاء متفرقة بعضها متناقض مع بعضه البعض و لا يجمع أيا كان علي مدار التاريخ عنده نسخة جامعة لشتات الإنجيل المفترض أنه كتاب مقدس و ربما المستساغ العقلي الوحيد الذي يقدمه النصاري لمسألة الاختلاف الموجود بين الأنجيل هو اختلاف الحواريون علي الأمصار و خوفهم من ملك زمانهم ان يفتنهم عن دينهم
- 26 الجابري محمد عابد؛ التراث والحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1991 ص 252
- 27 حسن العباقي ، القرآن الكريم و القراءة الحداثية، دمشق نشر دار صفحات ، 2009 ص 9
- 28 محمد اركون قضايا في نقد العقل الديني ترجمة هاشم صالح بيروت دار الطليعة ص 285-286
- 29 محمد أركون ،قضايا في نقد العقل الديني، ترجمة هاشم صالح، مصدر نفسه ، ص 285
- 30 محمد أركون ،ا لمصدر نفسه ، ص 287
- 31 سهيل العروسي "" الحداثة من الايديولوجيا الي المعرفة ،منشورات اتحاد الكتاب ا ،دمشق 2007 ص 88
- 32 محمد اركون الفكر الاسلامي قراءة علمية مركز الانماء القومي ، بيروت ، المنارة ، 1990، ص 81